متى آخر مرة دَمعَتْ عيناك
خشيةً وخوفًا مِنَ الله ؟

يتسارع وقع خطى الأيام، وتتسابق لحظات المرء، نحو ساعات يشبه بعضها بعضا، وتشتد غفلة الإنسان مع متطلبات شئونه الحياتية، فلا يفيق إلا بعد ما طويت مراحل من عمره مهمة، فيندم عندئذ ندما كبيرا، ويتمنى أن لو أيقظه موقظ أو صرخ في وجهه ناصح.

وهذا في الواقع يحصل لكل أحد، فلا أحد ينجو من الغفلة، ولا أحد يهرب من التأثر بدوامة الحياة، ولكن ثمة لحظات صدق تائبة، ونوبات خشوع صادقة تتلمس شغاف القلب المنيب إلى ربه، يحاسب فيها نفسه، ويجدد فيها العهد، وعندها تثور ثائرة مشاعره الصادقة التائبة، وتغرورق عيناه بدموع إيمان، فيكون بكاؤه عندئذ أشبه ما يكون بغيث السماء الذي يرسله الله سبحانه على جدباء الأرض فيحييها وينبت فيها الحياة من جديد.

القرآن والسنة

قال الله تعالى: "وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا" الإسراء .109:

وعن أبي أمامة رضي الله عنه، قال النبي صلى الله عليه وسلم : "ليس شيء أحب إلى الله تعالى من قطرتين وأثرين: قطرة دموع من خشية الله وقطرة تهرق في سبيل الله، وأما الأثران فأثر في سبيل الله وأثر في فريضة من فرائض الله تعالى" أخرجه الترمذي.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا يلج النار رجل بكى من خشية الله تعالى حتى يعود اللبن في الضرع، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم" أخرجه الترمذي.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "سبعة يظلهم الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله ..."، وذكر منهم "ورجلا ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ، متفق عليه.

سمة الصالحين

عن العرباض بن سارية قال: "وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة سالت منها العيون ووجلت منها القلوب ..." أخرجه أحمد والترمذي.

وكان الضحاك بن مزاحم إذا أمسى بكى فيقال له ما يبكيك ؟ فيقول : لا أدري ماذا صعد اليوم من عملي.!

وقال ثابت البناني: كنا نتبع الجنازة فما نرى إلا متقنعا باكيا أو متقنعا متفكرا.

وقال كعب الأحبار: لأن أبكي من خشية الله فتسيل دموعي على وجنتي أحب إلى من أن أتصدق بوزني ذهبا.

وقال قتادة: كان العلاء بن زياد إذا أراد أن يقرأ القرآن ليعظ الناس بكى وإذا أوصى أجهش بالبكاء.

وقال الذهبي: كان ابن المنكدر إذا بكى مسح وجهه ولحيته من دموعه ويقول: بلغني أن النار لا تأكل موضعا مسته الدموع.

وعن يحيى بن بكير، قال: سألت الحسن بن صالح أن يصف لنا غسل الميت فما قدرت عليه من البكاء.

وعن محمد بن المبارك، قال: كان سعيد بن عبد العزيز إذا فاتته صلاة الجماعة بكى.

وقال معاوية بن قرة: من يدلني على رجل بكاء بالليل بسام بالنهار؟

وقال بكر بن عبد الله المزني: "من مثلك يا ابن آدم خلي بينك وبين المحراب، تدخل منه إذا شئت وتناجي ربك، ليس بينك وبينه حجاب ولا ترجمان، إنما طيب المؤمن الماء المالح هذه الدموع فأين من يتطيبون بها؟.

مثيرات البكاء

1- الخلوة الصالحة في أوقات إجابة الدعاء: فالخلوة الصالحة هي خليلة الصالحين والعبّاد وكل قلب يفتقر إلى خلوة، وأنا هنا أنعتها بالصالحة وهي الخلوة التي يقصدها المرء بنية التعبد لله والخلوص لله ، قال الله سبحانه: " وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً".. وهذه الخلوة الصالحة يكون فيها التدبر في شأن الإنسان وحاله مع ربه، ويكون فيها محاسبة المرء لنفسه، ويكون فيها استدعاء تاريخ حياة كل واحد مع نفسه وفقط، وتكون فيها المصارحة والمكاشفة بين كل امرئ وقلبه، فيعرف مقامه وتقصيره وكم هو مذنب مقصر خطاء.. وعندها يسارع إلى الاستغفار

والبكاء من خشيته سبحانه.

-2الإنصات والتدبر للتذكرة والموعظة: فكم من كلمة طيبة كانت سببا في تغيير حياة إنسان من الغفلة إلى الاستقامة، وقد حذر العلماء من إغفال التذكرة وعدم التأثر بها، فقال إبراهيم بن أدهم: علامة سواد القلوب ثلاث.. ذكر منها: ألا يجد المرء في التذكرة مألما!..

وكان الحسن إذا سمع القرآن قال: والله لا يؤمن عبد بهذا القرآن إلا حزن وذبل وإلا نصب وإلا ذاب وإلا تعب، وقال ذر لأبيه عمر بن ذر الهمداني: ما بال المتكلمين يتكلمون فلا يبكي أحد فإذا تكلمت أنت يا أبت سمعت البكاء من ههنا وههنا؟ فقال: يا ولدي ليست النائحة الثكلى كالنائحة المستأجرة.

-3محاسبة الجوارح ومخاطبتها: فعن أحمد بن إبراهيم قال: نظر يونس بن عبيد إلى قدميه عند موته فبكى وقال: قدماي لم تغبرا في سبيل الله!، فهذه إذن حسرات الصالحين، حسرة يوم يذكر طاعة لم يتمها، وحسرة يوم يذكر خيرا لم يشارك فيه، وحسرة يوم يمر عليه وقت لا يذكر الله تعالى فيه،

والحق إن في الحديث إلى الجوارح لاسترجاع لواقع المرء الحقيقي الذي غاب عنه، فينظر إلى كل جارحة من جوارحه ويخاطبها: كم من ذنب شاركت فيه؟ وكم من طاعة قصرت عنها؟ وكم من توبة تمنعت عنها؟ وكم من استغفار غفلت عنه؟.. ويذكر قول الله تعالى: }حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ{... الآيات "فصلت".

البكاء والإخلاص

تساؤل يثار كثيرا حول الموقف من البكاء أمام الناس وفي حضرتهم رغم ما يمكن أن يكتنف هذا من التماس ببعض شبهات المراءاة للناس وتصوير النفس بالخشوع والتقوى، فكثير من الناس يمتنعون عن ذلك البكاء ولا يبدونه مهما كانت الأحوال مخافة الاتهام بالرياء أو مخافة مداخلة النفس العجب، وعلى جانب آخر يرى البعض أن البكاء في المجالس وفى المواعظ شيء طبيعي لأصحاب القلوب الرقيقة لا يمكن إنكاره أو اتهام صاحبه بسوء نية، فما هو الموقف الصائب إذن؟.

الناظر إلى أحوال السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن تابعهم ونهج نهجهم من علماء الأمة ليرى بوضوح أن البكاء كان سمة مميزة لهم - كما سبق أن بينا فيما سبق من آثار- بل أكثر من ذلك.. إن بعضهم كان ربما يظل طوال درس العلم الذي يلقيه يظل يبكي حتى ينتهي،

فيروي الإمام الذهبي عن أبي هارون قال: كان عون يحدثنا ولحيته ترتش بالدموع،

وقال جعفر بن سليمان: كنت إذا رأيت وجه محمد بن واسع حسبت أنه وجه ثكلى.. إلى غير ذلك من الآثار المتكاثرة.

ولكن هناك أيضا من الآثار ما حض على إخفاء ذلك البكاء وجعله في الخلوة ومنفردا فقط،

فعن محمد بن زيد قال: "رأيت أبا أمامة أتى على رجل في المسجد وهو ساجد يبكي في سجوده فقال له: أنت أنت لو كان هذا في بيتك"،

وقال سفيان بن عيينة: "اكتم حسناتك كما تكتم سيئاتك"،

بل نقل الذهبي عن عمران بن خالد قال سمعت محمد بن واسع يقول: إن كان الرجل ليبكي عشرين سنة وامرأته معه لا تعلم به.. إلى غير ذلك من الآثار.

وخلاصة القول في ذلك أن يعلم الإنسان نفسه البكاء من خشية الله وعند سماع الموعظة والذكر والتذكرة وعند محاسبته لنفسه أو غير ذلك، والأصل في البكاء أن يكون في الوحدة ومنفردا وفي الخلوات، ولكن إذا كان المرء بين الناس وغلبه البكاء فلا شيء في ذلك أبدا إذا اطمأن من نفسه الصدق والإخلاص بل إن ذلك كان حال الصالحين.

نصائح تربوية

-1تهيئة البيئة التربوية الإيمانية مهمة في تربية المرء على رقة القلب واستشعار الخشوع واعتياد العين على البكاء، فلم يكن الصالحون يصلون إلى هذه الدرجة العالية من البكاء من خشية الله لولا أن هناك بيئة إيمانية تربوا عليها وفيها أعانتهم على ذلك وتلك البيئة لها أكبر الأثر في التشجيع على الأعمال الصالحة والتربي عليها، والمربون الذين يهملون تهيئة تلك البيئة أو يتناسون أثرها هم مخطئون ولا شك،

يروي ابن الجوزي أن عمر بن عبد العزيز بكى ذات ليلة، فبكت فاطمة زوجته، فبكى أهل الدار لا يدري أولئك ما أبكى هؤلاء فلما تجلت عنهم العبرة سألوه ما أبكاك ؟ فقال : ذكرت منصرف القوم بين يدي الله فريق في الجنة وفريق في السعير، فما زالوا يبكون.!

-2أثر القدوة مهم جدا في التربية على تلك العبادة الصالحة فقد كان البكاؤون السابقون يجدون القدوة الصالحة في ذلك من معلميهم ومربيهم فكانوا يتشبهون بهم إلى أن يصير العمل الصالح عندهم أساسا وأصلا، أما أن يبح صوت خطيب أو معلم يعظ الناس في البكاء والناس لم يروا عليه أبدا أثرا للبكاء فلا أثر لنصحه أبدا.

-3يجب ألا يكون بكاء المرء على شيء من الدنيا فات أو صاحب فقد أو مصيبة حدثت فذلك بكاء الدنيا وإنما مقصودنا هو بكاء الخشية من الله، وهو أن يكون باعث البكاء دائما هو خشية الله سبحانه وتوقيره والتقصير في حقه تعالى وكثرة ذنوب العبد وخوف العاقبة، وقد كانت أسباب بكاء الصالحين السابقين تدور حول: تذكر ذنبهم وسيئاتهم وآثار ذلك ، أو التفكر في تقصيرهم تجاه ربهم سبحانه وما وراء ذلك ، أو الخوف من عذاب الله سبحانه وسوء الخاتمة أو الخوف من ألا تقبل أعمالهم الصالحة ، أو الخوف من الموت قبل الاستعداد له أو الشوق إلى الله سبحانه ومحبته ، أو خوف الفتن ورجاء الثبات على دينهم أو رجاء قبول الدعاء.

فلقد غاب عن حياة الكثيرين منّا سَمتٌ جليل، وسمة ربانيّة، أنْستْنا الدّنيا ومشاغلها، ولَهَونا بها في الليل والنهار، هذه الخصْلة الكريمة الشريفة، وهي صفة قد امتدحَ اللهُ ورسولُه صلى الله عليه وسلم فاعليها.

نعم، لقد فَقَدْنا البكاءَ من خشية الله، وغاب عنّا هذا السمت البُكائي وندر، حتى صار يُقال: إنّ فلانًا يبكي، وحتى صار منَ المُسْتَغْرَب أن تجدَ مَن يخشع في الموعظة ، وحتى صار صَفُّ الملتزمينَ في الصلاة أشَحّ بالدّمع منَ الصّخر، إنّ هذا كلّه مؤذنٌ بخَلل خطير، ومُنذر بشرٍّ وَبيل.

لا نريد المُخادَعة، ولا الضّحك على النّفْس، فربّما الْتَمَسَ الإنسانُ لنفسه ألْفَ عُذْر، وربما قال ما قال إياس لأبيه: إنما هي رقّة في القلوب، يريد أنّ المسألة طبائع، فهناك مَن في قلبه رقّة، وهناك مَن في قلبه قسوة، وكلّ هذه مبررات واهية، وحُجج ساقطة، واجعل نصب عينيكَ أبدًا قولَ مَن قال: إذا لم تبك من خشية الله، فابك على نفسك؛ لأنّكَ لَمْ تبك.

كثيرٌ منّا مَن يقرأ القرآن؛ ولكنَ لاَ تدمع عيونُه من خَشية الله، وكثيرٌ منّا مَن يستمع إلى أحاديث تُذكّرُه بالآخرة، وتُخَوّفه بالنار، وتُحبّبه في الجنّة؛ ولكن قلبه لا يخشع، ولا يخضع، ولا يلين، فقدَ عَمّت البلوى، وانتشرت المعاصي والآثام، فلم يبقَ لهذا القلب خوفٌ منَ الله، ولم يبقَ لهذه العينَ خَشْيَة حتى تدمعَ شوقًا إلى الله.

أيّها الإخْوة

ليسأل الواحدُ منّا نفسَه: بالله عليكَ، متى آخر مرة دَمعَتْ عيناك خشيةً وخوفًا منَ الله ؟ ولعلّ جواب كثيرٍ منّا قد يكون : من سنوات عديدة، أو أنّها لم تدمعْ أصْلاً خشية لله، فلماذا هذه القسوة في القلوب ؟ ولماذا هذا التّحجّرُ في العيون ؟ ما هو إلاّ بسبب الابتعاد عن منهج الله، والرّكون إلى هذه الدّنيا الفانية ؟ فقد نقرأ القرآن ولا نتأثّر، ولا نبكي، ونسمع أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم ولا تَقْشَعِرّ الجلودُ، ونسمع المواعظ والتّخْويف بالله وبالآخرة، ولا تُحرّك فينا ساكنًا.

وحسبنا هذا التّهديد الإلهي المخيف: }فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ{ الزمر: 22. قال مالك بن دينار رحمه الله : ما ضرب الله عبدًا بعقوبة أعظم من قسوة القلب، وما غضب الله عزّ وجل على قوم إلاّ نَزَعَ منهمُ الرحمة.

أيها المؤمنون

إنّ البكاءَ من خشية الله - تعالى - مقامٌ عظيم، وهو مقامُ الأنبياء والصالحين، إنّه مقام الخُشُوع، وإراقة الدّموع خوفًا منَ الله، إنّه التعبير عن حزن القلب، وانكسار الفؤاد.

عباد الله

يقول الله - سبحانه وتعالى - عنْ أولئك الذين تدمع عيونُهم من خشية الله، وترق قلوبُهم لذكْر الله؛ يقول سبحانه : }وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ{ المائدة: 38، ويقول عنهم سبحانه أيضًا: }إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا{ مريم: 85، ويقول كذلك: }وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا{ الإسراء: 109.

إنّ البكاء من خشية الله تعالى من أعظم الأمور التي يحبُّها الله تبارك وتعالى فعن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (ليس شيء أحب إلى الله من قطرتين وأثرين، قطرة من دموع في خشية الله، وقطرة دم تُهراق في سبيل الله...)، الحديث؛ رواه التّرمذي، وصحّحه الألباني.

وانْظُروا إلى الفَضْل العظيم الذي أعَدّهُ اللهُ سبحانه لصاحب العين التي تدمع خشية وخوفًا من الله ؛

ما رَقّ قلبٌ لله عَزّ وَجَلّ إلا كان صاحبه سابقًا إلى الخيرات، مُشَمّرًا في الطاعات.

ما رَقّ قلبٌ لله عَزّ وَجَلّ إلاّ كان حريصًا على طاعة الله ومحبته.

ما رَقّ قلب لله عَزّ وَجَلّ إلاّ وَجَدْتَ صاحبَه مُطمئنًا بذكْر الله.

وما رَقّ قلبٌ لله عَزّ وَجَلّ إلا وجدتَهُ أبعد ما يكون عَنْ معاصي الله عز وجل.

فالقلبُ الرّقيق قلبٌ ذليلٌ أمام عظمة الله، وبطشه تبارك وتعالى.

ما انتزعه داعي الشيطان إلاّ وانكسر؛ خوفًا وخشية للرّحمن سبحانه وتعالى.

ولا جاءَهُ داعي الغَي والهوى إلاّ ارتعدتْ فرائصه من خشية المَليك سبحانه وتعالى.

مِن أعظم أسباب القَسْوة للقلب ، وقلّة البكاء مِن خشية الله : الرّكون إلى الدّنيا، والغُرُور بأهلها، وكثْرَة الاشتغال بفُضُول أحاديثها.

وكذا منَ الأسباب كَثْرة الذّنوب ، فوالله ما تحجّرَت العيون، وقَسَت القلوب، إلاّ بتَرَاكُم المعاصي والآثام، فأصبح القلبُ لا يجد مساغًا لآيات تُتْلى، وأحاديث تُذكّر، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول:) إنّ العبد إذا أذنبَ ذنبًا نُكتَتْ في قلبه نُكتةٌ سوداء، فإنْ تَاب ونزع واستغفر صقل قلبه، وإن عاد زادتْ حتى تعلوَ قلبَه، فذلك الرّان الذي ذَكَرَ الله في القرآن: }كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ{ المطففين: 41)؛ رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجَهْ، وحسّنَهُ الألباني.

فقد أظلم هذا القلب بشُؤْم المعصية، فكيف لقلب علاه الرّان أنْ يبكيَ من خشية الله ؟ وكيف لقَلب سَوّدَتْهُ المعاصي والآثام أن يتَفكّر في خلق الله؟

ومن أسباب قسوة القلوب: الجلُوس مع الفُسّاق، ومُعَاشَرة مَن لا خير في مُعَاشَرَته؛ ولذلكَ ما ألف الإنسان صحبة لا خير في صحبتها إلاّ قسا قلبُه من ذكْر الله تبارك وتعالى.

إنّ البُكَاء من خشية الله نعمةٌ، ما وُجدَتْ على الأرض أجَلّ وأعظم منها، وما من قلب يُحْرَمُ هذه النّعمة إلاّ كان صاحبه مَوْعودًا بعذَاب الله؛ قال تعالى : }فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ{ الزمر: 22؛ لذلك ما مِن مؤمنٍ صادقٍ في إيمانه؛ إلاّ وهو يَتَفكّر: كَيفَ أُرقّق قلبي لِذِكْر الله ومحبته؟

لِلْبكاء أسبابٌ وسُبُلٌ

أولها :الإيمان بالله ، فما رقّ قلبٌ بسبب أعظم منَ الإيمان بالله، ولا عَرَفَ عبد ربّه بأسمائه وصفاته إلاّ رقّ قلبُه ودمعتْ عينه، فلا تأتيه الآية منَ الله والحديث عنْ رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا قال بلسان حاله ومقاله: سَمعْنا وأطَعْنا، غفرانكَ ربّنا، وإليكَ المصير.

ثانيها :النّظَر والتّدَبّر في كتاب الله وآياته؛ قالَ تعالى : }أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا{ محمد: 42، فالمؤمن المُتَدَبّر لآيات الله هو أرقّ الناس قلبًا، وأنقاهم نَفْسًا، وما قرأ العبد هذه الآيات مُتَفَكّرًا مُتَدَبّرًا إلاّ صارت العين تدمع، والقلب يخشع، والنّفْس تخضع، وإذا بأرض هذا القلب تنقلَب خصبة غضّة طريّة، تنبت في النّفس السكينة، والخُضُوع لله رب العالمين ؛ }اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ{ الزمر: 23.

إنّ هذا القرآن موعظةُ ربّ العالمين، وكلامُ إله الأولينَ والآخرينَ، فما قرأه عبد يرجو الهدايةَ إلا وَتَيَسّرَت له أسبابها، واتّضَحَتْ له طرائقها، هذا القرآن الذي حوّل قلوب الصحابة منَ الظّلمة إلى الإشراق، ومنَ الغلظة إلى الرّقّة،

فها هو عمر بن الخطاب يسمع آيات من سورة طه، فتملأ قلبه القاسي رقّة وخشية،

وها هو الطفيل بن عمرو الدوسي يسمع آياتَ منَ الذّكر الحكيم، فيُسارع إلى هذا الدّين مُؤمنًا مُستَجيبًا لأوامره، داعيًا قومه إليه، وهذا أُسَيد بن الحُضَير جاء ليمنعَ مصعبًا منَ الدعوة في المدينة، فيشير عليه مصعب بسماع بعض الآيات، فما هي إلا آيات تُتلى، وإذا بها تسري إلى القلب سريان النور في الظلماء، حتى يسلمَ أُسيد، ويَتَحَوّل من محارب للإسلام إلى داعٍ إليه؛ لذلك ما أدمنَ عبد تلاوة القرآن إلاّ رَقّ قلبُه من خشيةِ الله.

ثالثها : تذكّر الآخرة وأهوالها، والجنة ونعيمها، والنار وجَحيمها، أن يَتَذَكّر العبد أنه إلى الله صائر، وما بعد الدّنيا من دار إلاّ الجنة أو النار، فإذا تَذَكّر الإنسان أنّ الحياة زائلة، وأنّ المتاع فان، فإنّه حينئذٍ يحتقر الدّنيا، ويقبل على ربّها، عندئذ يرقّ قلبُه، وتدمع عينُه، وتَخشع جوارحه.

إنّ لرقّة القلب علامات، فمن علامات رقّة القلب ألاّ يفترَ صاحبُه عن ذكر ربّه، فإنّ ذكْرَ الله تطمئنّ به القلوب: }الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ{ الرعد: 82، وفي القلب فاقة لا يسدها إلاّ ذكر الله، فيكون صاحبه غنيًا بلا مال، عزيزًا بلا عشيرة، مهيبًا بلا سلطان، قال رجل للحسن البصري: يا أبا سعيد، أشكو قسوة قلبي، قال: أذِبه بذِكْر الله.

ومِن علامات رقّة القلب أن يكونَ صاحبه إذا دخل في الصلاة، ذهب عنه همّه وغمه بالدّنيا، ووجد فيها راحته ونعيمه وقرّة عينه وسرور قلبه، وسبحان الله، نحن الواحد منّا إذا دَخَل في الصلاة تذكّرَ أمور دُنياه، وما هذا إلاّ لقَسْوة في القَلْب.

ومِن علامات رِقّة القَلْب أنّ صاحبه إذا فاتَهُ وِرْده أو طاعة منَ الطاعات، وَجَد لذلك ألَمًا أعظم من تألّمِ الحريص بِفَوات ماله ودُنياه.

ومنها: أنّ صاحبَه يخلو بربّه، فيتضرّع إليه ويدعوه، ويَتَلَذّذ بين يديه سبحانه قال ابن مسعود

رضيَ الله عنه : "اطلُب قلبكَ في مواطن ثلاثة: عند سَمَاعِ القرآن، وعند مجالس الذِكر، وفي أوقات الخلوة، فإن لم تجدْه فسَل اللهَ قلبًا؛ فإنه لا قلب لك."

ولعلّنا نسأل أو نتساءَل: من أين تأتي رقّة القلوب وانكسارها وإنابتها إلى ربّها ؟ ومَن الذي يَتَفَضّل عليها بإخباتها ؟ إنه الله سبحانه وتعالى فالقلوب بين إصبعين من أصابعه، يقلّبها كيف يشاء؛ كما قال ﷺ) : إنّ قلوب بني آدم كلها بين إصبعينِ من أصابع الرحمن؛ كقلب واحد، يصرفه حيث يشاء)؛ رواه مسلم.

لقد ضرب أسلافُنا المَثَل الأعلى في خُشُوعهم وإنابتهم لرَبّهم عز وجل فأورثهمُ الله نور الإيمان في قلوبهم، فصارتْ قلوبهم لَيّنة مِن ذكره تعالى فما تكاد تخلو بالله إلاّ فاضتْ أعينهم من الدّمع من كمال خشيته، وكان أولهم حبيبنا ورسولنا ﷺ فقد كان أخشى الناس لله، وأرقهم قلبًا ، فقد ثَبَت في الصّحيحين، عن ابن مسعود رضي الله عنه : أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال له : (اقرأ عليّ القرآن)، فقال: أقرأ عليك القرآن، وعليك أنزل؟! قال:)إنّي أحبُّ أن أسمعه من غيري(، فقرأ من سورة النساء حتى بلغ قول الله تعالى: }فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا{ النساء: 14، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :)حسبك(، فإذا عيناه تَذْرفان.

وقد ثَبَتَ عنه صلى الله عليه وسلم : "أنه كان إذا صَلّى سُمِع لصدره أزيز كأزيز المِرْجَل من البكاء، أي: كصوت القدر إذا اشتدّ غليانه" رواه أبو داود، وأحمد، والنسائي.

هذا حال النبي ﷺ في بكائه من خشية الله، أخَذَهَا الصحابة والتابعون - رضوان الله عليهم - فقد روى الحاكم، والبَزّار بسَنَدٍ حسن، عن زيد بن أرقم، قال : كنّا مع أبي بكر رضيَ الله عنه بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم فاستَسْقى، فقدم له قدح من عَسَل مشوب بماء، فلمّا قربه إلى فيه بكى وبكى، حتى أبكى مَن حوله، فما استطاعوا أن يسألوه عن سبب بكائه، فسكتوا وما سكَت، ثم رفع القدح إلى فيه مرّةً أخرى، فلما قربه من فيه بكى وبكى، حتى أبكى مَن حوله، ثم سكتوا فسكت بعد ذلك، وبدأ يمسح الدموع من عينيه رضي الله عنه فقالوا: ما أبكاك يا خليفة رسول الله ؟ قال : كنتُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكان ليس معنا فيه أحد، وهو يقول: (إليك عني، إليك عني)، فقلتُ: يا رسول الله، مَن تُخاطب، وليس ها هنا أحد؟ قال صلى الله عليه وسلم : (هذه الدّنيا تمثّلت لي، فقلتُ لها: إليكِ عنّي، فقالت: إن نجوتَ مني فلن ينجو مني من بعدك)، فخشيت من هذا.

وبَكَتْ فاطمة بنت عبدالملك رحمها الله ذات مرّة ، فسُئلَتْ، فقالت: رأيت عمر بن عبدالعزيز ذات ليلة قائمًا يُصَلّي، فأتى على هذه الآية} :يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ{ القارعة: 4، 5، فبكى ثم قال: واسَوءَ صباحاه، فسقط على الأرض وجعلِ يبكي، حتى ظننتُ أن نفسَه ستخرج، ثم هدأ فظننتُ أنه قد قضى، ثم أفاق إفاقة فنادى: ياسَوءَ صباحاه، ثم قفز فجعل يجول في الدار، ويقول: ويلي مِن يوم يكون الناس فيه كالفَرَاش المبثوث، وتكون الجبال كالعهن المنفوش، فلم يزل كذلك حتى طلع الفجر، ثم سقط كأنه مَيِّت، حتى أتاه الإذن للصلاة، فوالله ما ذكرت ليلته تلك إلا غَلَبَتْني عيناي، فلم أملك رد عَبْرتي.

وقام محمد بن المنكدر ذات ليلة فبكى، ثم اجتمع عليه أهله ليستعْلموا عن سبب بكائه، فاستعجم لسانه، فدعوا أبا حازم، فَلما دَخَل أبو حازم هدأ محمد بن المنكدر بعض الشيء، فسأله عن سبب بكائه، فقال: تلوتُ قول الله جل وعلا : }وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ{ الزمر: 74، فبكى أبو حازم، وعاد محمد بن المنكدر إلى البكاء، فقالوا: أتينا بك لتخفِّف عنه فزدته بكاءً، ولكنه قول الله : }وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ{ الزمر: 74، وكان الربيع بن خثيم يبكي بكاءً شديداً ، فلمّا رأت أمه ما يلقاه ولدها منَ البكاء والسهر نادَتْه، فقالت: يا بني، لعلّكَ قتلتَ قتيلاً ؟ فقال: نعم ياوالدتي، قتلتُ قتيلاً، فقالتْ: ومَن هذا القتيل يابني، نتحمل إلى أهله فيُعفوكَ ؟ والله، لو علموا ما تَلْقى منَ البكاء والسّهَر لقد رحموك ، فقال الربيع: ياوالدتي هي نفسي، ياوالدتي هي نفسي.

عباد الله:

هذا بكاء السّلَف، وهذه دُمُوع البَكّائين تسيل، ولسان حالهم يقول:

نَزَفَ الْبُكَاءُ دُمُوعَ عَيْنِكَ فاسْتَعِرْ عَيْنًا لِغَيْرِكَ دَمْعُهَا مدْرَارُ

مَنْ ذَا يُعِيرُكَ عَيْنَهُ تَبْكِي بِهَا أَرَأَيْتَ عَيْنًا لِلدُّمُوعِ تُعَارُ

نسأل الله أن نكون من خشيته بكائين ومن عذابه مرحمين وعن النار مبعدين وفي رحمه مغمرين وفي جنة داخلين . أنه ولي ذلك والقادر عليه.

ودعواتكم لي . والحمد لله رب العالمين

كاتب المقالة : منقول
تاريخ النشر : 01/11/2010
من موقع : موقع الشيخ الدكتور/ محمد فرج الأصفر
رابط الموقع : www.mohammdfarag.com